كلية الفنون الجميلة
FACULTY OF FINE ARTS
MANSOURA UNIVERSITY
جامعة المنصورة

مجلة الفنون والعمارة

JOURNAL OF ART & ARCHITECTURE

مجلة علمية دولية محكمة فصلية تصدرها
كلية الفنون الجميلة - جامعة المنصورة

The Print ISSN: 3062-570X
The Online ISSN: 3062-570X

المجلد الأول - العدد الثاني - يونيو 2025

دور النحات إيفان مارتوس في تشكيل الهوية الفنية والذاكرة الروسية من خلال النحت التذكاري في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

The role of sculptor Ivan Martos in shaping Russian artistic identity and memory through memorial sculpture in the eighteenth and nineteenth centuries

ابتسام السيد أحمد الخواجه
المعيد بقسم النحت
كلية الفنون الجميلة جامعة المنصورة

مجلة الفنون والعمارة
JOURNAL OF ART & ARCHITECTURE
مجلة علمية دولية محكمة فصلية تصدرها
كلية الفنون الجميلة - جامعة المنصورة

المجلد الأول - العدد الثاني - ٢٠٢٥

مجلة الفنون والعمارة
JOURNAL OF ART & ARCHITECTURE

دور النحات إيفان مارتوس في تشكيل الهوية الفنية والذاكرة الروسية من خلال النحت التذكاري في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

The role of sculptor Ivan Martos in shaping Russian artistic identity and memory through memorial sculpture in the eighteenth and nineteenth centuries

أ.د/ عبد المنعم محمد محمد حيوان
أستاذ متفرغ بقسم النحت كلية الفنون الجميلة جامعة حلوان
Prof. Dr. Abdel Moneim Mohamed Mohamed Hayawan
Full-time Professor, Sculpture Department, Faculty of Fine Arts, Helwan University
م/ ابتسام السيد سيدأحمد الخواجة
معيدة بقسم النحت كلية الفنون الجميلة جامعة المنصورة
Ebtisam Elsayed SayedAhmed Elkhawaga
Teaching Assistant, Sculpture Department, Faculty of Fine Arts, Mansoura University
ebtisamelkhawaga@mans.edu.eg

الملخـص

يُعالج هذا البحث الدور الحيوي الذي أدّاه النحات الروسي إيفان مارتوس (1754–1835) في صياغة كل من الهوية الفنية الروسية والذاكرة الوطنية، من خلال أعماله النحتية التذكارية التي أنجزها خلال أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. فقد مثلت أعمال مارتوس لحظة التقاء استثنائية بين الفن والتاريخ والسياسة، وجاءت في سياق مشروع ثقافي وأيديولوجي أوسع هدَف إلى توطيد مفهوم الدولة الروسية الحديثة وتعزيز صورتها في الوعي الجمعي.

اعتمد البحث منهجًا تحليليًا يقوم على دراسة السياق النظري لمفهومي الذاكرة الجمعية والهوية الفنية، ومن ثم تطبيقه على أعمال مارتوس، خصوصًا أبرز أعماله : نصب مينين وبوجارسكي في الساحة الحمراء بموسكو(1818) ، وشواهد القبور الرمزية مثل شاهد قبر الأميرة إيلينا ستيبانوفنا كوراكينا وشاهد قبر الأميرة صوفيا سيميونوفنا فولكونسكايا. وأظهر التحليل أن مارتوس اعتمد على الأسلوب الكلاسيكي الجديد الذي استمده من دراسته في روما، لكنه قام بإعادة تشكيله بما يتناسب مع الرموز الوطنية والروح الروسية، مبرزًا البطولة، الفضيلة، والرمزية الدينية في آنٍ واحد. ومن خلال هذه الأعمال، أسهم مارتوس في تحويل الفن من مجرد أداة جمالية إلى وسيلة ثقافية لبناء سردية قومية موحدة، تخاطب الجمهور وتُشكّل وعيه التاريخي والرمزي.

كما ناقش البحث التأثير العميق لمارتوس في المشهد الفني الروسي اللاحق، من حيث التقاليد الأكاديمية في تدريس النحت، ومن حيث تأثيره البصري والثقافي على النحاتين في القرن التاسع عشر. لقد تم ترسيخ أعماله في الوعي الروسي بوصفها جزءًا لا يتجزأ من المشروع الوطني، وظلت نُصبه التذكارية تمثل مرجعًا بصريًا للمجد الوطني والبطولة الشعبية، حتى في عصور لاحقة كالفترة السوفيتية، حيث أُعيد توظيف رموزه ضمن سياقات سياسية جديدة.

الكلمات المفتاحية

النحات الروسي إيفان مارتوس؛ الذاكرة الروسية؛ الهوية الفنية؛ النحت التذكاري

Abstract

This research examines the vital role played by the Russian sculptor Ivan Martos (1754–1835) in shaping both Russian artistic identity and national memory through his commemorative sculptures produced during the late 18th and early 19th centuries. Martos's work represented an exceptional moment of convergence between art, history, and politics, and came within the context of a broader cultural and ideological project aimed at consolidating the concept of the modern Russian state and enhancing its image in the collective consciousness. The research adopts an analytical approach based on examining the theoretical context of the concepts of collective memory and artistic identity, then applying it to Martos's works, particularly his most prominent works: the Minin and Pozharsky Monument in Moscow's Red Square (1818), and symbolic tombstones such as those of Tombstone of Princess Elena Stepanovna Kurakina and Tombstone of Princess Sophia Semyonovna Volkonskaya. The analysis revealed that Martos relied on the neoclassical style derived from his studies in Rome but reshaped it to fit national symbols and the Russian spirit, simultaneously highlighting heroism, virtue, and religious symbolism. Through these works, Martos contributed to transforming art from a mere aesthetic tool into a cultural vehicle for constructing a unified national narrative that addressed the public and shaped its historical and symbolic consciousness. The research also discussed Martos' profound influence on the subsequent Russian art scene, in terms of the academic tradition of teaching sculpture and his visual and cultural impact on sculptors in the nineteenth century. His works were entrenched in Russian consciousness as an integral part of the national project, and his monuments remained a visual reference to national glory and popular heroism, even in later eras, such as the Soviet period, when his symbols were repurposed within new political contexts.

Keywords

Russian sculptor Ivan Martos; artistic identity; Russian memory; memorial sculpture

المُقــدمة

يُعد الفن أحد أهم الوسائل التي تعبّر بها الأمم عن ذاكرتها وهويتها الثقافية، ولا سيما في الفترات التي تتطلب توحيد الرؤية التاريخية وتعزيز الانتماء الوطني. ومن بين فنون التعبير الجماعي، يبرز النحت التذكاري كأداة قوية ذات بُعدين متكاملين : فني رمزي وتاريخي سياسي، إذ يُخلّد من خلاله الأفراد والأحداث، ويُعيد صياغة الذاكرة العامة من خلال صورة جمالية دائمة في الأماكن العامة.

وفي هذا الإطار، تتجلى مكانة النحات الروسي إيفان مارتوس (1754–1835) بوصفه أحد أبرز روّاد النحت الكلاسيكي الجديد في روسيا، حيث أسهم بشكل جوهري في ترسيخ الهوية الفنية الروسية من جهة، وفي بناء الذاكرة الوطنية الجمعية من جهة أخرى، عبر أعماله النحتية التي جسّدت قيم البطولة والمواطنة. وقد جاءت أعماله في وقتٍ مهم من تاريخ روسيا، في أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، حيث برزت الحاجة إلى صياغة رموز وطنية قادرة على توحيد المجتمع وتعزيز الروح القومية.

يهدف هذا البحث إلى دراسة الدور الذي لعبه إيفان مارتوس في تشكيل كل من الهوية الفنية الروسية والذاكرة الجمعية من خلال النحت التذكاري، وذلك عبر تحليل السياق التاريخي والفني الذي أنتجه، ودارسًا الجوانب الجمالية والرمزية في أبرز أعماله، وبيان كيف مثّلت هذه الأعمال نقطة التقاء بين الفن الرسمي والدلالة القومية. كما يسعى البحث إلى تتبع أثر مارتوس في تطوير الأسلوب الكلاسيكي في روسيا، ورصد امتداد تأثيره على النحاتين اللاحقين وعلى الوعي الثقافي الروسي. كما يسعى البحث إلى فهم كيف استُخدم الفن النحتي كأداة لتعزيز الانتماء الوطني وبناء سردية تاريخية مرئية تُخلَّد في الوجدان الشعبي.

مشكـلة البحث

إلى أي مدى ساهمت أعمال إيفان مارتوس النحتية التذكارية في تشكيل الهوية الفنية والذاكرة الروسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؟ وكيف وظّف الأسلوب الكلاسيكي الجديد ليعكس رموزًا وطنية محلية في الاماكن العامة في الإمبراطورية؟

فـروض البحث

يفترض البحث أن:

- أعمال إيفان مارتوس لم تكن نحتًا جماليًا فقط، بل ممارسة رمزية لتشكيل الذاكرة الجمعية الروسية.
- النحت التذكاري في روسيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان أداة مقصودة لتثبيت الهوية الوطنية وصياغة التاريخ العام بصريًا.
- الأسلوب الكلاسيكي الجديد، الذي تبنّاه مارتوس، لم يكن مجرد تقليد أوروبي، بل أُعيد توظيفه روسيًا لخدمة مضامين محلية تتصل بالوعي الجمعي.

أهــداف البحث

- دراسة وتحليل الدور الثقافي والرمزي الذي لعبته أعمال إيفان مارتوس التذكارية في تكوين الوعي الوطني والهوية الفنية الروسية، من خلال توظيف النحت في بناء ذاكرة جمعية تستند إلى الرموز التاريخية والدينية والسياسية.

- تحليل السياق التاريخي والفني الذي نشأ فيه مارتوس وأثَّر على توجهاته الفنية.
- فهم دلالات النحت التذكاري من منظور الذاكرة الجمعية والهوية الوطنية.
- إيضاح أثر مارتوس على تطور الفن الروسي في القرن التاسع عشر وما بعده.
- استخلاص العلاقة بين الفن والسياسة في عصر الإمبراطورية الروسية من خلال تحليل الإنتاج النحتي.

أهميــة البحث

يسعى البحث إلى دراسة النحت التذكاري الروسي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مع إبراز دور الفن، لا سيما النحت، في تشكيل الذاكرة القومية، حيث يُظهر كيف يمكن لهذا الفن البصري أن يتحول إلى أداة فعالة في بناء السرديات التاريخية وترسيخ الرموز الوطنية. كما يسلط الضوء على الإسهامات الفنية للنحات الروسي إيفان مارتوس، كاشفًا عن أبعادها الثقافية والسياسية، ويهدف في الوقت ذاته إلى الإسهام في دراسات الهوية الروسية من خلال معالجة العلاقة بين الفن والهوية الوطنية.

مسلمــات البحث

- وجود حروب وأحداث تاريخية بارزة في القرن التاسع عشر.
- المحيط السياسي والاجتماعي له دور هام في تطور اعمال النحت لدى النحات.
- الفن يتأثر بالسياق السياسي والثقافي والاجتماعي الذي ينشأ فيه.
- النحت التذكاري هو خطاب بصري يحمل رسائل رمزية موجهة إلى الجمهور، ويشارك في بناء الذاكرة الجماعية.
- الهوية الفنية لأمة ما تتشكل عبر التفاعل بين التأثيرات الأجنبية والخصوصيات المحلية، لا سيما في فترات التحول التاريخي.
- إيفان مارتوس كان فناناً فعالًا في الإمبراطورية الروسية، وليس مجرد فنان مستقل.

منهــج البحث

المنهج المتعلق بدراسات البحث هو المنهج التاريخي الوصفي التحليلي.

حــدود البحث

الزمنية: أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر

المكانية: الامبراطورية الروسية

مصطلحات البحث

النحت التذكاري (Commemorative Sculpture)
هو نوع من الفنون النحتية يُقام في الأماكن العامة أو في الأماكن الرمزية (مثل الساحات والمقابر) لتخليد شخصيات أو أحداث أو قيم محددة. ويُستخدم النحت التذكاري في هذا البحث كأداة رمزية تعكس كيفية بناء المجتمعات لذاكرتها الجماعية من خلال تمثيل بصري دائم.

الذاكرة الجمعية (Collective Memory)
مفهوم سوسيولوجي وثقافي يُشير إلى تراكُم الذكريات والمواقف والتجارب التاريخية في وعي جماعة بشرية ما، يتم إعادة إنتاجها وصياغتها عبر الوسائط الرمزية مثل الفن، والتعليم،

والممارسات الثقافية. ويُوظف هذا المفهوم في البحث لفهم كيف تُستثمر أعمال مارتوس في صياغة هوية تاريخية مشتركة.

الهوية الفنية (Artistic Identity)

تعبّر عن الخصوصية الجمالية والثقافية التي تميز إنتاجًا فنيًا ما في سياق زماني ومكاني محدد، وتشمل الأساليب، المواضيع، الرموز، والتقنيات المعتمدة. في هذا البحث، يُستخدم المصطلح للإشارة إلى كيفية مساهمة مارتوس في بناء "هوية فنية روسية" تجمع بين التأثير الأوروبي والطابع المحلي.

الكلاسيكية الجديدة (Neoclassicism)

تيار فني نشأ في أوروبا خلال القرن الثامن عشر، يعتمد على محاكاة الفن الإغريقي والروماني القديم من حيث التوازن، البساطة، والمثالية الجمالية. ويُعتبر الأسلوب الجمالي الأساسي الذي اعتمده مارتوس، لكن البحث يُظهر كيف أعاد توظيفه ضمن رؤية قومية روسية.

الرمزية البصرية (Visual Symbolism)

استخدام الصور والأشكال والأيقونات في الفن للتعبير عن أفكار أو معانٍ مجردة، كالحرية، التضحية، أو الوطن. تحضر هذه الرمزية بقوة في أعمال مارتوس، حيث تُشكّل التماثيل رموزًا لوحدة الشعب، البطولة، أو المجد القومي.

١-الاطار النظري للبحث

١,١ الذاكرة الجمعية و الهوية الفنية

تُشير الذاكرة الجمعية إلى العمليات التي تُبقي أحداث الماضي حيّة في وعي الجماعة، وتُعيد بناءها بما يخدم تطلعات الحاضر وهويته. وقد طوّر عالم الاجتماع (موريس هالبواش) Maurice Halbwach هذا المفهوم بوصفه نتاجًا اجتماعيًا وثقافيًا، لا يُبنى فقط عبر السرد التاريخي، بل عبر طقوس ورموز مرئية مثل النصب والتماثيل. وفي هذا السياق، يصبح النحت التذكاري وسيلة مركزية لتمثيل الذاكرة الجمعية، إذ يمنح شكلًا ماديًا للوقائع والمواقف والقيم التي ترغب الجماعة في تذكّرها وتخليدها. وهو ما يجعل من الفن أداة محورية في "صناعة الذاكرة"، وليس فقط توثيقًا لها.

فالهوية الفنية لأي أمة تُبنى من خلال تفاعل بين التأثيرات الخارجية (مثل الأساليب الأوروبية في حالة روسيا)، والثقافة المحلية .وفي القرن الثامن عشر، كانت روسيا في خضم مشروع تحديث ثقافي قادته النخبة الإمبراطورية، تمثَّل في استقدام الأساليب الغربية الكلاسيكية وتوظيفها في تأسيس فن وطني "رسمي."

وضمن هذا السياق، برزت الحاجة إلى نحت "هوية فنية روسية" تُوازي المشروع الإمبراطوري، وتكون في الوقت ذاته قادرة على التعبير عن القيم والمفاهيم الروسية الخاصة. وقد كان للنحاتين، وعلى رأسهم إيفان مارتوس، دور محوري في تجسيد هذا المسعى، من خلال تكييف الأسلوب الكلاسيكي الجديد مع موضوعات ومضامين وطنية وروحية خاصة بالسياق الروسي.

١,٢ النحت التذكاري

يُعد النحت التذكاري الشكل الأكثر وضوحًا لتقاطع الذاكرة الجمعية بالهوية الفنية، فهو فن عام يمارس حضوره في الفراغ المشترك، ويخاطب وجدان الجماعة لا ذوق الفرد فقط. وفي السياق الروسي، أصبح النحت وسيلة لتخليد الانتصارات السياسية والبطولات العسكرية، وكذلك لتأكيد القيم الدينية والأخلاقية التي يُفترض أنها جوهر "الروح الروسية."

كما أن النُصُب التذكارية لم تكن مجرد أعمال فنية، بل كانت جزءًا من مشروع بناء الأمة، توظِّف الفن ليكون أداة تعليمية رمزية تُرسخ معاني محددة في الوعي الجمعي. وهو ما نجده بوضوح في أعمال

إيفان مارتوس التي سعت إلى تمثيل رموز مثل الوطنية، التضحية، والفضيلة من خلال شخصيات وأحداث تاريخية حُفرت في الذاكرة الروسية.

١,٣ السيرة الفنية لإيفان مارتوس

١,٣,١ النشأة والتعليم: البدايات الأولى

وُلد إيفان بتروفيتش مارتوس في عام ١٧٥٢، على الرغم من وجود بعض المصادر التي تشير إلى أعوام أخرى مثل ١٧٥٠ أو ١٧٥٤، وذلك في بلدة (إيتشنيا) Ichnia التابعة لمقاطعة (تشيرنيجيف) Chernigiv حالياً في أوكرانيا. وقد أبدى مارتوس منذ طفولته المبكرة شغفًا ملحوظًا بفن النحت، حيث كان يقضي أوقاته في تشكيل التماثيل من الطين، ما دلّ على ميل فني فطري نحو التعبير التشكيلي. غير أن ميوله هذه لم تكن منسجمة مع تطلعات والديه، اللذين كانا يأملان أن يسلك ابنهما مسارًا عسكريًا، كما كان مألوفًا في أوساط العائلات الروسية آنذاك. وقد لعب عمه، الذي كان يشغل منصب شماس في الكنيسة، دورًا محوريًا في تغيير مسار حياة الطفل؛ إذ لاحظ مبكرًا موهبته الفنية الفريدة، وتدخل لإقناع والديّ إيفان بعدم إلحاقه بفيلق المتدربين العسكريين، بل بتمكينه من متابعة ميوله الإبداعية. كان لهذا التدخل أثر بالغ في توجيه مارتوس نحو المسار الذي سيقوده لاحقًا إلى ريادة فن النحت الروسي.

والتحق مارتوس في سن العاشرة بأكاديمية سانت بطرسبرج الإمبراطورية للفنون، والتي كانت قد أُنشئت حديثًا آنذاك، فكانت مركزًا رئيسًا لتحديث الفن الروسي وإعادة تشكيله وفقًا للمعايير الكلاسيكية الغربية. حيث تلقى تعليمه الفني على مدى تسع سنوات(١٧٧٠–١٧٧٩)، درس خلالها النحت الكلاسيكي وتأثر بعمق بالفن الروماني واليوناني القديم، وهو ما سيكون له أثر واضح في كل أعماله اللاحقة، حيث كان من بين أساتذته البارزين النحات الفرنسي (نيكولا جيلليه)N. Gillet ، أحد الشخصيات المحورية في تأسيس تقاليد النحت الروسي، والذي أسهم في تكوين نخبة من النحاتين الروس المتميزين.

و في عام ١٧٧٣ ، حصل على الميدالية الذهبية الكبرى للأكاديمية وبالتالي سافر في بعثة إلى إيطاليا لمواصلة دراسته، حيث أمضى هناك قرابة تسع سنوات، وتابع مارتوس دراسته الفنية في إيطاليا، التي كانت آنذاك المركز الثقافي للفن الكلاسيكي. وقد كرس مارتوس خلال هذه الفترة معظم جهده لدراسة التراث الفني الكلاسيكي، مع التركيز على صقل مهاراته التقنية وتوسيع معارفه الجمالية، مما أسهم في تكوين أسسه الفنية الصلبة التي ظهرت لاحقًا في أعماله النحتية الكبرى.

١,٣,٢ السفر إلى ايطاليا

والتحق بالأكاديمية الرومانية حيث درس تحت إشراف عدد من أبرز المفكرين والفنانين الكلاسيكيين، من بينهم الرسام (رافائيل مينجز)Rafael Mings ، المعروف بمساهماته في تأسيس النظرية الجمالية للكلاسيكية الجديدة، وكذلك النحات الإيطالي (كارلو ألباتشيني)Carlo Albacini . وتحت إشراف الأخير، قام مارتوس بإنجاز نسخ دقيقة من رؤوس تماثيل أثرية، من بينها "مينيرفا" و"عذراء فيستال"، كجزء من تدريبه الأكاديمي. وبالرغم من تأثر مارتوس بالأساتذة الكلاسيكيين في ذلك الوقت؛ الا انه اختلف عن معاصريه ممن تأثروا أيضا بالكلاسيكية مثل: (أنطونيو كانوفا) Antonio Canova ، فبالرغم من اختلاف السياقين الثقافي والسياسي، إلا أنهما التقيا في تبني الأسلوب الكلاسيكي، المستمد من التماثيل اليونانية والرومانية، لكنهما استخدماه لأغراض فنية وفكرية مختلفة. فكلا الفنانين اتبعا مثالية الجسد الإنساني المستندة إلى النحت الإغريقي القديم، مع التركيز على التناسبات الهادئة، ونقاء السطح، وتعبيرات الوجه المنضبطة. ويظهر ذلك في تمثال مارتوس الجنائزي "الفتاة الباكية عند القبر" (حوالي ١٧٩٢) والذي كان موجوداً قديماً عند قبر "أ. ف. تورتشانينوف" ويوجد الآن في المتحف

الروسي للحفاظ عليه– شكل (١)-، والذي يُبرز رؤيته الأخلاقية والروحية للنحت، ويُجسد الفن بوصفه وسيلة لتكريم الحياة والموت في آن واحد. ويُقارن بأسلوبه الهادئ وخطوطه النقية مع تمثال كانوفا الشهير "كيوبيد و سايكي" 1793–1787)) – شكل (٢)- كلا التمثالين يجسدان العاطفة من دون مبالغة أو دراما: الفتاة الباكية تنحني في حزن داخلي صامت، كما تحيط سايكي كيوبيد بذراعيها في مشهد هادئ للحب والتوق. لكن الفارق هنا أن مارتوس يوجه العمل نحو البُعد الأخلاقي، بينما يحتفي كانوفا بالجمال المثالي المجرد من السياق الوطني أو الديني.

ورغم وحدة الأسلوب الكلاسيكي بين مارتوس وكانوفا، الى إن الاختلاف الجوهري يكمن في غاية النحت: كانوفا يُجسّد الجمال الإلهي والصفاء المثالي، بينما يحمّل مارتوس منحوتاته رسالة قومية وأخلاقية، مثل: تمثال "بوجارسكي ومينين" وهو تمجيد للبطولة الوطنية، في حين أن "كيوبيد وسايكي" هو تمجيد للانسجام الرومانسي. هكذا يتحول النحت الكلاسيكي عند كلٍّ منهما من تقليد جمالي إلى تعبير فكري خاص بالسياق التاريخي والثقافي لكل فنان .

شكل (1) أنطونيو كانوفا، " كيوبيد وسايكي"، رخام، ١٨٨*١٥٥سم، ١٧٩٣، متحف اللوفر
https://www.studiarapido.it/amore-e-psiche-di-antonio-canova-descrizione/?amp

شكل (2) إيفان مارتوس، " شاهد قبر أ. ف. تورتشانينوف"، رخام، ١٧٩٢، المتحف الروسي الآن
https://www.li.ru/interface/pda/?jid=4026744&pid=498745786&redirected=1&page=0&backurl=/users/402/6744/post498745786

١,٣,٣ العودة إلى روسيـــــا: الفن في خدمة الدولة

وعند عودته إلى روسيا، بدأ مارتوس حياته المهنية بالتدريس في أكاديمية الفنون، وسرعان ما أصبح أحد أعمدة الفن الرسمي في روسيا القيصرية. لم يكن مارتوس فنانًا حرًا يعمل وفق نزعات ذاتية، بل كان جزءًا من مشروع ثقافي إمبراطوري، هدفه تأسيس هوية فنية وطنية قائمة على النموذج الكلاسيكي الأوروبي، ولكن بصياغة محلية تُعبر عن الواقع الروسي.

ومن بين أقدم الأعمال التي بقيت من إنتاج مارتوس حتى يومنا هذا، تبرز التماثيل النصفية التي أنجزها لعائلة بانين، والتي نفذها عقب عودته إلى روسيا في عام ١٧٧٩. وقد أعاد استخدام هذا التصميم لاحقًا في تصميم شاهد قبر الكونت نيكيتا إيفانوفيتش بانين عام ١٧٩٠- شكل (٣)-. وعلى الرغم من أن

فن البورتريه النحتي كوّن جزءًا من إنتاجه، إلا أنه لم يشغل حيزًا محوريًا في مجمل أعماله؛ إذ لم يكن مارتوس مهتماً كثيراً بتجسيد معاصريه من خلال النحت، بقدر ما كان يولي اهتمامه لتخليد ذكراهم وتمجيد مجدهم بعد وفاتهم .

شكل (٣) إيفان مارتوس، " شاهد قبر نيكيتا بانين"، رخام، ١٧٨٩–١٧٩١، قبر البشارة، سانت بطرسبرج
https://dzen.ru/a/ZWZwCZw2Ux2XcfHS

١,٣,٤ الأسلوب الفني: الكلاسيكية الجديدة بين الشكل والمعنى

يتميّز أسلوب مارتوس بالانضباط الكلاسيكي والدقة التقنية، وهو تأثر واضح بالنحت الإغريقي والروماني، خاصة في الاعتماد على البنية المتوازنة، التعبير المثالي، والرمزية الأخلاقية. لكن ما يميز أعماله أنها لم تكن مجرد "استنساخ" للأسلوب الأوروبي، بل حملت بُعدًا روسيًا خاصًا، حيث تجسدت من خلالها شخصيات وأحداث من التاريخ الروسي، وصيغت بمعانٍ تمس الوعي الجماعي المحلي. وبهذا، مثّل مارتوس جسرًا بين التراث الفني الأوروبي والهوية الروسية الناشئة، حيث سخّر أدوات النحت الكلاسيكي الجديد لتجسيد موضوعات ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالوطن، والبطولة، والروح العامة الروسية.

٢- إسهاماته في بناء الذاكرة والهوية الوطنية

برز الدور الرمزي لأعمال مارتوس من خلال نصبه التذكارية البارزة، التي لم تكن مجرد قطع فنية، بل محطات في بناء الذاكرة القومية. فكل تمثال أو شاهد قبر أو نصب صمّمه كان يحمل رسالة تتجاوز الجمال، ليمَس مفاهيم مثل التضحية، المجد، والتاريخ المشترك. وتُعد أعماله حجر الأساس في مفهوم "الفن في خدمة الذاكرة "في روسيا، وأحد أعمدة الهوية البصرية الروسية في القرن التاسع عشر، والتي استمرت تأثيراتها لعقود بعد وفاته.

وقد حقق مارتوس أول اعتراف رسمي به بفضل التنفيذ الناجح لشواهد القبور الأولى التي أنجزها، والتي أكسبته شهرة مبكرة في الأوساط الفنية الروسية. ونتيجة لذلك، أُسندت إليه العديد من التكليفات، حيث قام بتصميم وتنفيذ شواهد قبور لأسر بارزة مثل ، وتورشانينوف، وكوراكينا، ولازاريف،

وجاجارينا، بل وحتى الإمبراطور بولس الأول. واصل مارتوس العمل في فن النحت التذكاري حتى نهاية حياته، مخلفًا وراءه مجموعة من الأعمال التي تُعد من قمم النحت الكلاسيكي الروسي. ومن بين تلك الأعمال، يُعد "نصب الآباء التذكاري" في مدينة بافلوفسك من أكثرها كمالاً.

٢,١ في مجال النحت الضخم والتجميلي

في ذات الفترة التي شهدت إنجاز مارتوس لأعماله التذكارية الكبرى، عمل كذلك في مجال النحت الضخم والتجميلي المرتبط بتجميل المباني والمنشآت المعمارية، حيث قدّم إسهامات بارزة في عدد من المعالم المعمارية البارزة في الإمبراطورية الروسية. من بين أبرز أعماله في هذا المجال: النحت الداخلي المعروف بـ"غرفة الطعام الخضراء" في القصر الكبير بتسارسكوي سيلو، وكذلك أحد المنحوتات البارزة المتميزة في الدرج المصنوع من الحديد الزهر داخل أكاديمية سانت بطرسبرج للفنون. كما أسهم بأعمال نحتيّة فردية لتزيين نوافير بيترجوف الشهيرة -شكل (٤)-. ومن أبرز مشاريعه في هذه المرحلة أيضًا مساهمته في تزيين كاتدرائية قازان التي صممها المعماري أندريه فورونيخين، حيث أنجز تمثالاً كبيراً للقديس يوحنا المعمدان -شكل (٥)-، إلى جانب إفريز بارز بعنوان "موسى يفجّر الماء في الصحراء"، وعدد من المنحوتات الصغيرة فوق النوافذ، ما شكل مثالاً بديعًا على التناغم بين العمارة والنحت في السياق الروسي الكلاسيكي.

شكل (٤) إيفان مارتوس، "أكتيون– نافورة قصر بيترجوف"، برونز، ١٨٠١
https://dzen.ru/a/ZWZwCZw2Ux2XcfHS

٢,٢ في مجال النُصُب التذكـــارية في الميادين العامة
النحت التذكاري كأداة لبناء الذاكرة الوطنية:

عرفت الحقبة الواقعة عند تقاطع القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالعصر الذهبي في تاريخ الفن الروسي، وتميزت بازدهار كبير في المجال المعماري والفني في روسيا، حيث تم تشييد مجموعات معمارية فخمة مثل مباني الأدميرالية، وكاتدرائية قازان، وكاتدرائية القديس إسحاق، بالإضافة إلى نوافير

بيترجوف، وقصور تسارسكوي سيلو وبافلوفسك، التي زخرفت جميعها بمنحوتات فنية عالية المستوى. كما شهدت الساحات العامة في المدن الكبرى إقامة نصب تذكارية شكلت علامات بارزة في المشهد الحضري والثقافي. فلم يكن النحت في عصر مارتوس مجرد تعبير فني مستقل، بل أصبح وسيلة رمزية تمارس حضورها في الاماكن العامة، وتشارك بفعالية في بناء ذاكرة الأمة .فقد كانت روسيا، خلال تلك الفترة، تمر بتحولات سياسية وثقافية، ما جعل الفن يُستدعى لخدمة مشاريع الدولة في ترسيخ رموز الوحدة والمقاومة والولاء.

وبذلك، جاءت أعمال مارتوس التذكارية لتقوم بوظيفة مزدوجة: جمالية وتوثيقية، حيث تمزج بين الأسلوب الكلاسيكي من حيث الشكل، وبين المضمون الروسي الوطني الذي يخاطب وجدان المتلقي. ففي تلك الفترة من حياة مارتوس شهدت تحولًا في محور اهتمامه الفني، إذ تراجع تركيزه على النحت الجنائزي ليحل محله الانخراط في إنشاء النُصب التذكارية العامة في الأماكن العامة مثل:-

- **نصب (مينين وبوجارسكي) Minin and Puzharsky (١٨١٨)** – شكل (٦)-

– الجانب التاريخي والسياسي للنصب

ارتبطت هذه المرحلة من مسيرته بشكل وثيق بإنجاز أبرز أعماله على الإطلاق: النصب التذكاري لكوزما مينين والأمير دميتري بوجارسكي في موسكو، والذي أصبح لاحقًا رمزًا وطنيًا مميزًا لفن النحت الروسي ومن أكثر الاعمال التذكارية شهرة في تاريخ الفن الروسي. وأُنشئ هذا النصب في الساحة الحمراء في موسكو عام ١٨١٨، لتخليد ذكرى البطلين الشعبيين اللذين قادا المقاومة الروسية ضد الاحتلال البولندي في أوائل القرن السابع عشر. وقد جاء تدشين هذا العمل بعد انتصار روسيا على نابليون عام ١٨١٢، ما جعله يُقرأ أيضًا بوصفه رسالة سياسية تمجد روح المقاومة والوحدة الوطنية.

بدأ مارتوس العمل على هذا المشروع خلال فترة الحروب النابليونية والحرب الوطنية عام ١٨١٢، حيث عرض النموذج الأولي للنصب في معرض أكاديمية الفنون عام ١٨٠٣، ومع أن الظروف المالية الصعبة أخرت الشروع في تنفيذه حتى عام ١٨١٢، فإن هذا التوقيت منح العمل بعدًا تاريخيًا إضافيًا، إذ ربطت ذاكرة الأمة بين لحظة النضال الحالية وتاريخ البطولة القومية قبل قرنين من الزمان. وقد اختار مارتوس تصوير اللحظة التي يلتمس فيها كوزما مينين، زعيم ميليشيا نيجني نوفجورود، من الأمير الجريح دميتري بوجارسكي أن يتولى قيادة القوات لطرد الغزاة البولنديين من موسكو.

ومن اللافت أن مارتوس لم يسعَ إلى تحقيق دقة تاريخية صارمة في تمثيل الشخصيتين، بل اختار تصويرهما كأبطال شعبيين ذوي سمات مثالية، تقترب من صورة الأبطال الأسطوريين، وهو ما يعكس فهمًا أعمق للجنسية والهوية، ورغم الأزياء العتيقة التي ترتديها الشخصيتان، فقد نجح النحات في التعبير عن الطابع الوطني الروسي من خلال إبراز عناصر التصميم، والشجاعة، والإرادة، والنبل.

وقد تجلى البُعد الشعبي لهذا العمل الفذ في كونه أول نصب تذكاري يُقام في موسكو ليس لتكريم ملك أو قيصر، وإنما لتخليد أبطال وطنيين. وفقًا لمخطط مارتوس، تم وضع النصب في البداية في وسط موسكو، قبالة الصفوف التجارية، بمواجهة الكرملين، قبل أن يُنقل لاحقًا إلى موقعه الحالي قرب كاتدرائية القديس باسيل. وقد تحوّل افتتاح النصب، الذي جرى في ٢٠ فبراير ١٨١٨، إلى احتفال وطني واسع النطاق، وصفه أحد المعاصرين بقوله: "كان تدفق الناس للاستمتاع بهذا المشهد الفريد أمرًا لا يُصدق. لم يحظَ أي نصب آخر في روسيا بمثل هذا الإجماع أو النجاح."

– التحليل الفني

جسّد مارتوس في هذا النصب مشهدًا ديناميكيًا يبرز التفاعل بين مينين (الشخصية المدنية) وبوجارسكي (الشخصية العسكرية). يمدّ مينين يده في إشارة إلى التحفيز والدعوة للنهوض، بينما يجلس

بوجارسكي بحالة تأهب، يمسك سيفه في وضعية استعداد. من الناحية الشكلية، يتبع مارتوس الأسلوب الكلاسيكي في التكوين والوقار والتوازن، إلا أن العاطفة المنبعثة من تعبيرات الوجه والإيماءات، تضيف طابعًا دراميًا وإنسانيًا.

ويعد هذا النصب التذكاري أول نصب نحت في موسكو، وقد رمز إلى التجديد بعد تدمير العاصمة من قبل الفرنسيين. كانت زخارفه متجانسة تمامًا مع العمل الفني لمارتوس في العمارة الكلاسيكية الجديدة. فى اللوحة الأولى يصور الفنان عامة الشعب و هم يقدمون كل ما لديهم من تبرعات من أجل دعم القوات الروسية لطرد المستعمر . و هو المشهد نفسه الذى تكرر من أجل إقامة هذا التمثال لتخليد ذكرى الانتصار. على اليسار صورة أب أحضر ولديه في أفضل تقاليد عصر النهضة ، صور مارتوس نفسه على أنه والده، صنع رأس والده أفضل طالب لمارتوس أ. س. جالبرج. شكل (٦- أ)

و فى اللوحة الثانية (المثبتة على القاعدة من الخلف) يصور الفنان جنود روسيا و هم يقومون بطرد المستعمر البولندي الذى يتراجع تحت أقدام فرسان روسيا، كما أعطى الفنان اهتماما خاصا لأيقونة العذراء وهى تحمل السيد المسيح - على درع المحارب فهى الأم المدافعة الحامية و ببركتها تنتصر روسيا . شكل (٦- ب)

يشكّل هذا العمل تجسيدًا بصريًا لفكرة "الاتحاد بين الشعب والجيش" في وجه الخطر الخارجي، وهي رسالة لا تزال ذات صدى في الثقافة الروسية المعاصرة. ومن خلال وضع النصب في قلب موسكو، عاصمة الدولة، أراد القيصر والمثقفون الروس ترسيخ البطولة الشعبية كجزء من الهوية الروسية الحديثة.

شكل (٦) إيفان مارتوس-نصب تذكاري لمينين وبوجارسكي-الساحة الحمراء-برونز-١٨١٨
https://sculptprivet.ru/russia/martos-klassitsizm-chast2-minin-pojarskyi

شكل (٦- أ) نحت بارز " المواطنون الحقيقيون يضحون بممتلكاتهم من أجل الوطن الأم" - برونز – ١٨١٨ (تفصيلية من الصورة ٦)
https://sculptprivet.ru/russia/martos-klassitsizm-chast2-minin-pojarskyi

شكل (٦- ب) نحت بارز "الأمير بوجارسكي يطرد الغزاة البولنديين من روسيا"- برونز – ١٨١٨، (تفصيلية من الصورة ٦)

وفي العقدين الأخيرين من حياة مارتوس، تولّى منصب النحات الرسمي للإمبراطورية الروسية، واستمر في العمل في النحت الضخم، وإن كانت أعماله في تلك المرحلة قد اتخذت طابعًا رسميًا أكثر، وقدم عددًا من الأعمال اللافتة، مثل تلك التي أنجزها كنُصب دوق ريشيليو في مدينة أوديسا – شكل (٧)-، ونُصب الإمبراطور ألكسندر الأول في تاجانروج – شكل (٨)-، ونُصب جريجوري بوتيمكين في خيرسون، و كذلك نُصب ميخائيل لومونوسوف في أرخانجيلسك -شكل (٩).

- **نصب الدوق (ريشيليو) Richelieu في أوديسا (١٨٢٨)**

هذا العمل أصبح منذ فترة طويلة السمة المميزة للمدينة الساحلية. فيه يظهر الدوق مرتديا تاجا عتيقا رومانيًا، مما يضفي عليه طابعًا شبه إلهي ومثالي، على غرار تماثيل القادة الرومان مثل قيصر أو أوغسطس، اليد اليمنى ممدودة في وضعية خطابية، تعبيرًا عن الحكمة والقيادة، اليد اليسرى تمسك برداء أو لفافة، رمزًا للمعرفة أو الإدارة المدنية. يقف على قاعدة من الجرانيت الوردي تحتوي على لوحات من النحت عالي البروز من البرونز، تمثل: الزراعة –رمز الخصوبة وتنمية الريف. -شكل (٧- أ)، والتجارة –رمز للانفتاح الاقتصادي. -شكل (٧- ب)، والعدالة –رمز الحكم العادل والمنصف. شكل (٧- ج)، كل رمز منها يجسد أبعاد حكم ريشيليو، وهي التوازن بين التنمية الاقتصادية والاجتماعية والإدارية.

ويُعد من أروع أعماله، وقد صُنع من البرونز ليخلد ذكرى الحاكم الفرنسي الأصل، الذي لعب دورًا محوريًا في تحويل أوديسا إلى واحدة من أجمل مدن نوفوروسيا. ويصوّر مارتوس دوق ريشيليو بوصفه حاكمًا حكيمًا، يتمتع بجمال نبيل يضاهي ما قدمه في أفضل أعماله السابقة. كما أن النصب ليس فقط تخليدًا لشخص، بل بيانًا سياسيًا وفنيًا يُظهر كيف كانت الإمبراطورية الروسية تستخدم الفن لتمجيد الحكم المستنير والانفتاح. وفي موقعه المطل على البحر وسلالم بوتيمكين، يربط بين القيادة والتقدم والانفتاح على العالم.

شكل (٧) إيفان مارتوس، " الدوق ريشيليو"، برونز وجرانيت، ١٨٢٨، أوديسا، أوكرانيا

شكل (٧– أ) نحت بارز يعبر عن الزراعة، قاعدة تمثال الدوق ريشيليو

شكل (٧– ب) نحت بارز يعبر عن التجارة، قاعدة تمثال الدوق ريشيليو

شكل (٧– ج) نحت بارز يعبر عن العدالة، قاعدة تمثال الدوق ريشيليو

- **(ألكسندر الأول) Alexander I في (تاجانروج) Taganrog (١٨٣٠) -شكل (٨)-**

هو نصب تذكاري يزين وسط المدينة التي توفي فيها هذا الإمبراطور الروسي. يقف تمثال الإمبراطور ألكسندر الأول على قاعدة مرتفعة من الجرانيت الرمادي ، ويُصعد إليها عبر خمس درجات حجرية. يُجسد التمثال الإمبراطور بهيئة كاملة، مرتديًا الزي العسكري لرتبة جنرال، ومُتلحفًا بعباءة منسدلة تُضفي عليه طابعًا مهيبًا. ويضع الإمبراطور قدمه بثبات على ثعبان ملتف، في إشارة رمزية إلى انتصاره على نابليون بونابرت. في يده اليسرى، يُمسك بمقبض سيفه، بينما تحمل يده اليمنى " قوانين الإمبراطورية الروسية "، تأكيدًا على سلطته المدنية والتشريعية. تُحيط بقدمي التمثال ملائكة مجنحة، تُجسد البعد الرمزي لشخصية ألكسندر الأول، والتي كثيرًا ما وُصفت بـ"الملائكية" في الأدبيات السياسية والثقافية لتلك الفترة. وقد حظي التمثال عند تدشينه بإعجاب المعاصرين، نظرًا للدقة البالغة في محاكاة ملامح الإمبراطور وخصائصه التشريحية. ويُعرض النموذج الأصلي لهذا النصب التذكاري، الذي نفذه النحات إيفان مارتوس، في المتحف الروسي الحكومي بمدينة سانت بطرسبرج، باعتباره مثالًا بارزًا لفن النحت الإمبراطوري في أوائل القرن التاسع عشر.

شكل (٨) إيفان مارتوس، " ألكسندر الأول"، برونز وجرانيت أسود، ١٨٣٠، تاجانروج
https://dzen.ru/a/ZWZwCZw2Ux2XcfHS

- **(لومونوسوف) Lomonosov في (أرخانجيلسك) Arkhangelsk (١٨٣٢)**

يعد هذا النصب – شكل (٩)- تحفة فنية مكرّسة لذكرى العالم الروسي ميخائيل فاسيليفيتش لومونوسوف وتم بناؤها بأموال تم جمعها عن طريق الاشتراك الشعبي. في هذا النصب صوّر النحات العالم لومونوسوف بزيّ روماني وهي ممارسة شائعة في فن النحت الكلاسيكي لتقديم الشخصيات الفكرية أو المدنية بصفتهم "حكماء خالدين"، لا كأشخاص عاديين، كما صوره بحركة ذات هدوء كلاسيكي أي بدون انفعال مما أضفب عليها طابع كلاسيكي. والرمزية هنا لا تقتصر على الزيّ، بل تعكس الاندماج بين

الفكر الروسي والأيديولوجيا الإمبراطورية الأوروبية، حيث تُستلهم الصور من العصور الكلاسيكية لإضفاء بُعد تاريخي وأسطوري على الشخصية.

والتمثال العاري المجنّح الذي يهدي القيثارة للومونوسوف يُمثل رمزًا شائعًا في الأيقونات الكلاسيكية، حيث يُجسد الإلهام الإلهي أو الشعري. كما أن تقديم القيثارة يربط بين العلم والفن، مشيرًا إلى أن إبداع لومونوسوف لم يكن علميًا فقط، بل أيضًا أدبيًا وشعريًا (وقد كتب بالفعل الشعر والمسرحيات).

والجزء النصف كروي الذي يقف عليه التمثال يُمثّل النصف الشمالي من الكرة الأرضية كرمزية واضحة إلى الإساهمات العلمية الكونية للومونوسوف، خاصة في مجالات الجغرافيا، والمناخ، والفيزياء والذي أضفى على التكوين تنوعا بصرياً مع القاعدة الاسطونية. والحروف "E" و"P" ترمز إلى الإمبراطورة إليزابيث بتروفنا، الراعية للعلوم، مما يعكس علاقة مثالية بين السلطة الملكية والمعرفة.

ويُجسّد نصب لومونوسوف نموذجًا ناضجًا لنحت كلاسيكي روسي يُوازن بين الواقعية الدقيقة والرمزية المثقفة. وقد نجح مارتوس في تكوين منظومة بصرية مركبة تمجد العالم والمُلهم، داخل إطار فني يجمع بين الجمال، والسلطة، والخلود. ويُعد العمل تتويجًا لمسيرته الفنية التي لطالما ارتكزت على إعلاء دور الإنسان في التاريخ من خلال رموز النحت.

وبعد تحليل الأعمال التذكارية:

تبين أن مارتوس لم يقتصر على تمجيد الأبطال العسكريين، بل أنتج ذاكرة ثقافية، دينية، وأخلاقية، وجمع بين التجسيد الجمالي والرسالة الرمزية، مما جعل أعماله قادرة على الاستمرار في التأثير. كما أنه كان واعيًا بدور الفن في الاماكن العامة، واستخدم النحت التذكاري كوسيلة لبناء هوية وطنية متعددة الأبعاد: عسكرية، فكرية، دينية، وجمالية.

شكل (٩) إيفان مارتوس، " نصب تذكاري للعالم لومونوسوف"، برونز وجرانيت، ١٨٢٩
https://dzen.ru/a/ZWZwCZw2Ux2XcfHS

٢,٣ في شـواهد القبـور والنُصُب الجنائزية

إن ذروة تجليات موهبة مارتوس الفنية تمثّلت بوضوح في مجال النحت التذكاري، حيث برزت شخصيته الإبداعية في أبهى صورها، من خلال ما عُرف عنه من "غنائية صادقة، وروحانية شاعرية، وبساطة نبيلة". وقد تجسدت هذه السمات في شواهد القبور التي قام بنحتها، والتي تميزت بجمال آسر، وحرفية فنية رفيعة، ونفاذ عميق إلى المعاني الإنسانية. فإلى جانب النصب الوطنية، أنجز مارتوس عددًا من الشواهد الجنائزية، خاصة في مقبرة دير ألكسندر نيفسكي في سانت بطرسبورج، والتي تُعتبر متحفًا فنيًا مفتوحًا. في هذه الأعمال، مزج بين الحزن المقدس والأسلوب الكلاسيكي الرصين، مما يعكس فهمه العميق للعلاقة بين الفن والروح.

وقد كرس مارتوس ما يقرب من عشرين عاماً من مسيرته الفنية الأولى للنحت الجنائزي، وهو فرع لم يكن راسخاً بعد في الثقافة الروسية، حيث لم تبدأ عادة إقامة شواهد القبور النحتية في روسيا إلا مع أواخر القرن الثامن عشر. ونظرًا لغياب تقاليد راسخة في هذا النوع الفني داخل السياق المحلي، اضطلع مارتوس، إلى جانب معاصريه، بمهمة وضع أسس جديدة لنمط روسي مميز في تصميم شواهد القبور. وقد اتخذ مارتوس نهجًا خاصًا به في تطوير هذا الفن، حيث نجد في أعماله مقاربة مختلفة للموت، لا تنظر إليه باعتباره مصيراً قاسيًا أو رهيبًا، بل كقانون كوني ثابت، تتسم فيه نهاية الحياة بطابع طبيعي وجمالي.

ومن أبرز أعماله المبكرة في هذا المجال:-

- **شاهد القبر الخاص بـ (ص. س. فولكونسكايا) S. S. Volkonskaya -شكل (١٠)-**

أنجزه في عام ١٧٨٢، وقد تم صياغته بأسلوب مستوحى من شواهد القبور الكلاسيكية القديمة، حيث يمثّل نحتاً بارزًا على لوح رخامي، مما يضفي عليه طابعًا نقيًا ومهيبًا. ويتكوّن الشاهد من إناء جنائزي، تحتضنه شخصية أنثوية وهذا التكوين يُعبّر عن الفقدان والأسى بطريقة رمزية، حيث يُشير الإناء إلى الموت، بينما تُجسّد الشخصية الأنثوية الحزن والحنين، في مشهد يمثل التجسيد الرمزي للأسى، دون أن يُنقص الحزن من جمال ملامحها أو رصانة حضورها، وأظهر مارتوس في هذا العمل موهبته في استخدام المواد، فبرع في تصوير ثنايا الأقمشة والستائر كأداة للتعبير العاطفي. ويُجسّد الشاهد تحول الفن الجنائزي الروسي من الرمزية الدينية إلى التعبير الإنساني، حيث يُركّز على المشاعر الشخصية والفقدان العائلي .يُعتبر هذا العمل مثالًا على كيفية استخدام الفن للتعبير عن المشاعر الإنسانية العميقة.

شكل (١٠) إ. ب. مارتوس،"شاهد قبر ص. س. فولكونسكايا ١٧٨٢م" رخام، موسكو، معرض الدولة تريتياكوف
https://dzen.ru/a/ZWZwCZw2Ux2XcfHS

- **شاهد قبر (م. ب. سوباكينا) M. B. Sobakina – شكل (١١)-**

أنجزه أيضا في عام ١٧٨٢ ، توفيت سوباكينا في سن متقدمة، فقد جاء احتفاءً بروح الحياة وجمالها السرمدي. ويُعد هذا العمل من أوائل الأمثلة على شواهد القبور الروسية متعددة الرموز والتكوينات الشكلية. ويتكوّن الشاهد على شكل هرم مقطوع، يتوسطه ميدالية بيضاوية تحتوي على بورتريه جانبي للراحلة، و إلى جانبها، تظهر شخصية أنثوية ترمز إلى الحزن في ثياب حداد، تُعبر عن الفقد بأسلوب هادئ تأملي ، وقد اتسمت رمزية هذا النصب التذكاري بعمق لافت؛ إذ صُوِّر الموت من خلال هيئة شاب جميل – ملك الموت – يطفئ شعلة مضاءة، رمزًا لانطفاء الحياة. وقد أبدى معاصرو مارتوس إعجابهم البالغ
بهذا العمل، معتبرين أنه ينطوي على "نضج فكري وصدق شعوري". و أظهر قدرته على الكشف عن الفروق الدقيقة في التجارب البشرية باستخدام الكتلة الحجرية.

شكل (١١) مارتوس." شاهد قبر سوباكينا". رخام. ١٧٨٢. متحف العمارة في موسكو، قبر جوليتسين لدير دونسكوي.
https://sculptprivet.ru/russia/martos-klassitsizm-nadgrobiia

شاهد قبر (إ. س. كوراكينا) E. S. Kurakina

ويُعد شاهد قبر كوراكينا، -شكل (١٢)- الذي أنجزه مارتوس عام ١٧٩٢، من أبرز أعماله في النحت التذكاري، والتي كان من المقرر تركيبها في الهواء الطلق بمقبرة لازاريفسكي. وفي اللوحة التي تقع على الجانب الأمامي من قاعدة النصب يظهر شابين باكيين يستند أحدهما برأسه على ذراعي الآخر ويرتديان ملابس عتيقة، إشارةً منه للحزن الشديد على الفقيد. كما يُعتبر هذا العمل من أعلى إنجازات مارتوس في القرن الثامن عشر، حيث يُبرز المهارة الفنية والتكامل الأسلوبي في النحت الكلاسيكي، وتعزيز التماسك والترابط في التكوين. كما تميّز مارتوس بعظمة الحلول الفنية الممتعة، والتي تشكِّل بشكل عام الأساس الأسلوبي للكلاسيكية. في شواهد قبوره لا توجد تفاصيل زائدة؛ فالأحجام دائمًا، متكاملة.

شكل (١٢) إ. ب. مارتوس،"شاهد قبر إ. س. كوراكينا ١٧٩٢م"، رخام، لينينجراد، قبر البشارة لألكسندر نيفسكي لافرا
https://dzen.ru/a/ZWZwCZw2Ux2XcfHS

- **النصب التذكاري للوالدين -شكل (١٣)-**

بُني هذا النصب عام ١٧٨٦، وزُيّن بالعناصر النحتية بعد ذلك بعشر سنوات. ويعد النصب من أبرز نتائج التعاون بين مارتوس والمهندس المعماري تشارلز كاميرون، والذي أُقيم في منطقة (سيلفيا) Sylvia القديمة بحديقة بافلوفسك، بناءً على طلب الدوقة الكبرى (ماريا فيودوروفنا) Maria Feodorovna تكريمًا لذكرى والديها. ويُعد هذا النصب فريدًا من نوعه، حيث صُمّم على هيئة هيكل يوناني مفتوح، يضم أعمدة تشكل مدخلًا إلى مساحة نصف دائرية. وأنجز كاميرون الجزء المعماري عام ١٧٨٦، بينما أضاف مارتوس المجموعة النحتية عام ١٧٩٦.

ويتألفُ التكوينُ النحتيُّ من جرَّتينِ طويلتينِ تستندانِ إلى هرمٍ أسودَ، بينما تجثو بجوارهما شخصيةٌ أنثويةٌ بحزنٍ، وقد مدَّتْ يديها نحوهما، في حينَ يستعدُّ الملاكُ المجنحُ لرسمِ حجابِ الموتِ فوقَ الجرَّتينِ. -شكل (١٣)- يستندُ المشهدُ إلى قاعدةٍ عاليةٍ مقسمةٍ إلى ثلاثةِ أقسامٍ، يتوسطُها نحتٌ بارزٌ يُمجِّدُ الحبَّ والصداقةَ – شكل (١٣- ب)-، بينما يظهرُ على الجزءِ العلويِّ نحتٌ بارزٌ يعكسُ المشاعرَ العائليةَ، تُتوَّجُه ميداليةٌ دائريةٌ تحملُ نحتًا بارزًا لوجهينِ جانبيينِ. شكل (١٣- أ)

وامتزجت النصب التذكارية في تلك الفترة بالبيئة الطبيعية للحدائق، كما اكتسبت شواهد القبور آنذاك طابعًا علمانيًا يتماشى مع المشهد الطبيعي حتى الرموز المستخدمة في هذا النصب كانت شائعة في كلٍّ من النحت التذكاري والفنّ العلماني. وقد اعتمد مارتوس على مبدأ البناء الكلاسيكي في جميع أعماله التذكارية، حيث أدرج أشكالاً منحوتة في معظم شواهد القبور التي صممها. وعادةً ما كانت هذه الاشكال بارزة على خلفية ميدالية، مما يضفي عليها طابعًا عاطفيًا، أو تُنفّذ في شكل تمثال نصفي، فتأخذ طابعًا رسميًا أقرب إلى النموذج الكلاسيكي.

شكل (١٣) س. كاميرون، إ. ب. مارتوس،" النصب التذكاري للوالدين ١٧٩٦م"، رخام، بافلوفسك متحف القصر (منطقة المنتزة).

شكل (١٣– أ) تفصيلية من الشكل السابق

شكل (١٣- ب) نحت بارز " تفصيلية اخرى من العمل
https://mobez.ru/foto/pamyatnik-roditelyam-v-pavlovskom.html

- **شاهد قبر (أ. ف. تورشانينوف) A. F. Turchaninov**

وفي عام ١٧٩٢، أنشأ مارتوس نصبًا تذكاريًا آخر، هو شاهد قبر لـ تورشانينوف - شكل (١٤)- بجانب نصب كوراكينا، يختلف هذا العمل بشكل ملحوظ، حيث يتميز بتكوين سردي ميداني على قاعدة مربعة. وفي وسط النصب، وعلى عمود منخفض، يوجد تمثال نصفي لتورشانينوف، برأس مائل وعاري، مما يعكس مكانته الاجتماعية العالية كمالك تعدين بارز. يتميز التمثال النصفي مصنوع من الرخام الأبيض، بينما باقي العناصر مصبوبة من البرونز الداكن .

وتتضمّن القاعدة أيضًا لوحات برونزية بارزة – شكل (١٤- أ، ١٤- ب) تصور مواكب حزينة بأسلوب كلاسيكي، يتجلى الأساس الواقعي للكلاسيكية كما فسرها مارتوس هنا في مرونة الشكل العاري

لكرونوس، الذي يجلس عند أسفل التمثال النصفي. يفتح جناحيه القويين، ويحمل "كتاب المصائر" المفتوح، مشيرًا إلى تاريخ وفاة تورشانينوف المدرج على صفحاته (١٧٨٧). يكشف الشكل القوي ذو العضلات القوية والنحت المثالي للأشكال عن معرفة عميقة بالتشريح من قبل النحات. استخدم مارتوس البرونز هنا لأول مرة، وهو ما نقل بشكل مثالي الأحجام المرنة وطبيعة الحركة. تصور اللوحات البرونزية البارزة على قاعدة التمثال، مواكب حزينة لشباب وشابات يرتدون أردية عتيقة طويلة بروح "الأسلوب الكلاسيكي".

شكل(١٤) إ. ب. مارتوس،" شاهد قبر أ. ف. تورشانينوف ١٧٩٢"، رخام وبرونز ورخام سماقي، لينينجراد مقبرة ألكسندر نيفسكي لافرا من القرن الثامن عشر.

شكل(١٤- أ) إ. ب. مارتوس،" لوحة نحت بارز لمعزبين شباب على شاهد قبر أ. ف. تورشانينوف ١٧٩٢"، رخام وبرونز ورخام سماقي، لينينجراد مقبرة ألكسندر نيفسكي لافرا من القرن الثامن عشر.

شكل(١٤- ب) إ. ب. مارتوس،" لوحة نحت بارز لنساء معزيات على شاهد قبر أ. ف. تورشانينوف ١٧٩٢"، رخام وبرونز ورخام سماقي، لينينجراد مقبرة ألكسندر نيفسكي لافرا من القرن الثامن عشر.

٣- التأثير الثقافي والمكانة التاريخية لأعمال إيفان مارتوس

شكّل إيفان مارتوس شخصية محورية في تشكيل الذوق الفني الروسي خلال مرحلة مفصلية من تطور الدولة الإمبراطورية. وباعتباره أستاذًا ثم رئيسًا لأكاديمية الفنون الإمبراطورية، أسهم في ترسيخ مبادئ الكلاسيكية الجديدة كإطار فني وأخلاقي، موجه لتشكيل الهوية الوطنية عبر الفن. لم يقتصر دوره على الجانب الأكاديمي، بل أسّس لمدرسة رمزية ثقافية، صارت مرجعًا لما سُمّي لاحقًا بـ"الفن الروسي الرفيع" في القرن التاسع عشر.

استمر تأثير مارتوس بعد وفاته عام ١٨٣٥، حيث حافظ تلامذته، مثل بورتمان وكلاكوف، على الأسس التي وضعها، مع إدخال عناصر واقعية على النحت التذكاري. كما تبنى الفن الرسمي في عهد القيصر نيكولاي الأول توجهاته، موظفًا النحت لأغراض تعليمية ورمزية، في الفضاءين المدني والجنائزي. وهكذا تحوّل مارتوس إلى مرجعية جمالية وأخلاقية في الفن العام الروسي.

لا تزال أعماله حاضرة في المشهد الفني الروسي، سواء في الميادين العامة أو المتاحف أو المناهج الأكاديمية. وتجاوزت منحوتاته الوظيفة الجمالية لتصبح رموزًا بصرية للهوية الوطنية. وقد أُعيد إحياء الاهتمام بإرثه، خصوصًا خلال الحقبة السوفيتية، حيث أُعيد توظيف نصب مينين وبوجارسكي ضمن خطاب الوحدة الوطنية، ما يعكس قابلية أعماله للانخراط في سرديات متجددة.

ورغم انتقادات بعض النقاد المعاصرين للكلاسيكية الجديدة بوصفها شكلًا رسميًا ومثاليًا، فإن مارتوس نجح في تحقيق توازن بين الجماليات المثالية والمضامين الوطنية. فقد طوّع النحت ليُعبّر عن الوجدان الجمعي الروسي، وجعل من فنه أداة رمزية تخدم الدولة والمجتمع في آنٍ واحد.

تُظهر أعماله – لا سيما التذكارية منها – كيف استطاع أن يُدمج بين الرمز والتاريخ والفن الراقي، ويؤسس نموذجًا للفن العام بوظائف متعددة: جمالية وتربوية ووطنية. ومن خلال هذا الدور، بات مارتوس فنانًا مؤسِّسًا للهوية البصرية الروسية، وفاعلًا مركزيًا في رسم ملامح الذاكرة الجماعية، مما يجعل دراسة تجربته ضرورية لفهم تطور الثقافة الروسية الحديثة.

وفي نهاية البحث نصل إلى أن إيفان مارتوس لم يكن مجرد فنان تقني بارع، بل كان صانع ذاكرة بصرية وقومية، استطاع أن يجمع بين التعبير الجمالي والدلالة الرمزية العميقة، وأن يرسّخ من خلال النحت

التذكاري مفاهيم مثل الوطن، التاريخ، الروح العامة، والبطولة الشعبية، بما يجعله شخصية محورية في تاريخ الفن الروسي وذاكرته الثقافية.

٤- النتـــائـــج

- إيفان مارتوس لم يكن مجرد نحات تقني، بل لعب دورًا تأسيسيًا في توجيه النحت الروسي نحو خدمة الدولة والمجتمع من خلال الرموز البصرية ذات الأبعاد الوطنية والتربوية.
- نجح مارتوس في تكريس النحت التذكاري كوسيلة لتعزيز الهوية القومية الروسية، حيث استُخدمت أعماله لتخليد رموز المقاومة والفضيلة والقيم المدنية.
- تكشف أعماله، مثل نصب مينين وبوجارسكي، عن قدرة النحت على توظيف الرمز السياسي والتاريخي ضمن قالب كلاسيكي يتّسم بالجمال والانضباط.
- أسهمت أكاديمية الفنون الإمبراطورية، بقيادة مارتوس، في إعداد جيل من النحاتين الذين واصلوا بناء الوعي الجمالي القومي، مما جعل إرثه الفني مؤثرًا على مدار عقود.
- أثبتت التجربة الروسية في عهد مارتوس أن الفن العام يمكن أن يكون أداة فاعلة في تكوين الذاكرة الجمعية، وأن النحت التذكاري قد يتحوّل إلى خطاب بصري يخدم أهدافًا اجتماعية وثقافية ودولتية.
- استُثمرت أعمال مارتوس لاحقًا في السياقات السوفيتية، مما يُبرز قابلية توظيف رموزه في سرديات متجددة، ويعزز فرضية أن أعماله تجاوزت زمنها لتصبح جزءًا من خطاب وطني مستمر.

٥- التوصيـــات

- ضرورة إعادة تقييم التراث النحتي الروسي في ضوء التحولات السياسية والثقافية، مع التركيز على أدوار الفنانين المؤسسين مثل إيفان مارتوس.
- تشجيع دراسات مقارنة بين النحت التذكاري في روسيا وأوروبا الغربية في القرن الثامن عشر، لرصد تمايز السياقات الرمزية والدلالية.
- إدراج أعمال مارتوس ضمن المناهج التعليمية للفنون والتاريخ البصري في العالم العربي، كنموذج لفن وظيفي يخدم الذاكرة والهوية.
- دعوة المتاحف والمؤسسات الأكاديمية إلى رقمنة ونشر أرشيف أعمال مارتوس لتيسير الدراسات النقدية المعاصرة حوله.
- اقتراح إجراء تحقيق بصري وتحليلي معمّق لأعمال مارتوس في ضوء النظريات الحديثة حول الفن العمومي، الرمزية، والتمثيل الثقافي.
- ضرورة دعم أبحاث أكاديمية تتناول النحت التذكاري من منظور الأنثروبولوجيا البصرية والتاريخ الثقافي، بما يفتح المجال لفهم أعمق للتمثيلات الفنية للهوية القومية

٦- المراجـــع العربـــيـــة

- عبد الله، محمد فتحي (2007) . تاريخ الفن الأوروبي من الكلاسيكية إلى الحداثة . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- الشحات، نوال عبد السلام (٢٠١٨) . الفن والسلطة في روسيا الإمبراطورية. مجلة الفنون – جامعة حلوان، (العدد ١٧).
- عبد العزيز، إيناس محمد (٢٠٢٠) . النحت التذكاري ودوره في تشكيل الوعي القومي الروسي. مجلة كلية الفنون الجميلة – جامعة الإسكندرية، (العدد٢٤).
- طه، علي عبد الله (٢٠١٥) . قراءات في الفن الروسي بين القرن الثامن عشر والعشرين . بيروت : دار نينوى.

٧- المراجـــع الأجنبية

- Arnonskaya, V. V., Natankhina, G. D., & others. (1978). Russian memorial sculpture. Moscow: Art. https://vsuete.com/russian-memorial-sculptor-ivan-petrovich-martos/#google_vignette
- Kaganovich, A. (2004). Public monuments and the shaping of collective memory in Imperial Russia. Slavic Review, 63(2), 234–258. https://sculptprivet.ru/russia/martos-klassitsizm-nadgrobiia
- WikiReading. (n.d.). Martos Ivan Petrovich (b. 1752 - d. 1835) .Retrieved May 27, 2025, from https://biography.wikireading.ru/hBO5YmZlcx

مجلة الفنون والعمارة

JOURNAL OF ART & ARCHITECTURE